

مثنويات . من الأحادية المنغلقة إلى الثقافة المنفتحة

لا شك في أنّ قضية الثقافة بصفة كونها مقولة فكرية، لا تزال تشغل الكثير من المفكرين والمبتمين بقضايا الإنسان الأساسية، خصوصاً إثر سقوط جدار برلين في العام ١٩٨٩، وصعود الإيديولوجيات القومية وأشكال التطرف الديني. وآخر النظريات في موضوع الثقافة، وهي من صياغة صموئيل هورتغن، الباحث في جامعة هارفرد الأميركية، تقول بأنّ الاتساعات الكبيرة في عالم اليوم لم تعد اقتصادية أو سياسية، بل هي ثقافية، وبأنّ العالم يعيش على توازن متّ قوى حضارية عظيمة أو سبع تقاسم البشرية، وهذه القوى هي: الإسلام، والصين، والهند، واليابان، والعالم الأرثوذكسي، وأفريقيا، والغرب. فالهوية الثقافية الأحادية المؤسّسة على التراث الحضاري واللغة والدين هي المرجع، وهي التي تحدّد الصديق من العدو. والسؤال الذي يُطرح اليوم هو التالي: «من أنت؟» أو بالأحرى: «من أنت بالنسبة إلى الآخرين؟»

ليس من مهمّتنا أن نقوم، في هذه الافتتاحية، بنقد نظرية هورتغن، بوجه شامل، أو حتى بوجه جزئي. ما نقوله إنّ هذه النظرة إلى الثقافة هي مشروع بشوّهيا، ودعوة إلى انغلاقية على الذات، واستبعاد الغيرية التي هي مصدر ثقة، وتحويل الآخر إلى مجرد جدار، بدل أن يكون مصدر ثراء متبادل على جميع المستويات. لا ننسّ في هذا المجال ما أدّت إليه النظرة القويّة المتعالية الأحادية التي اتّسمت بها الثقافة الألمانية الجرمانية: لقد كانت إغراقاً في العصبية ونزولاً إلى الدرك الأسفل وانفلات الغرائز.

وما يثبتنا في رؤيتنا هذه، «المثنويات» التي تذكرها المشرق في عددها هذا، وأولى تلك «المثنويات» المئة سنة الأولى من عمر مجلّتنا،

وقد أسست في العام ١٨٩٨، بإدراك عميق من الأب لويس شيخو اليسوعي، وخاطرة فريدة صدرت عن فكره النير.

فالمشرق، في نظر شيخو، كانت ولا تزال مشروعًا ثقافيًا في خدمة النهضة الفكرية العربية، وهذا ما يشدّد عليه البروفسور أهيف ستو، مدير معهد الآداب اشرقية بجامعة القديس يوسف، في المقال الذي كتبه بعنوان «المشرق والآداب العربية منذ جاهليتها حتى الحرب العالمية الأولى».

والمنوثة الثانية التي تعسّب في قناة الحوار الثقافي بين الشعوب هي المنوثة الثامنة لوفاء أبي الوليد محمّد بن رشد، الذي عمل على التوفيق بين الشريعة والفلسفة، ودافع عن الفلسفة في تهافت التهافت، وشرح أرسطو شرحًا واثيًا، ممّا دفع انغريسين إلى نقل أعماله إلى اللاتينية. وهذه الذكرى أثبتت قيمتها البروفسور جاك لانغاد في مقال كتبه حول «الإيمان والعقل» عند ابن رشد، عبر وجيات نظر تاريخية وفلسفية.

والذكرى الثالثة هي ذكرى المنوثة الأولى للكنيسة القبطية الكاثوليكية في مصر، وقد كتب في هذا الأمر الأب موريس مارتان عن «هوية هذه الكنيسة ورسالتها»، والأب جاك ماسون حول «الأصوام في التقليد القبطي وجذورها التاريخية». والكنيسة القبطية الكاثوليكية قامت، منذ نشأتها الرسمية قبل مائة عام، بجليل الأعمال في خدمة الإيمان والعلم والعدالة الاجتماعية والفكر والانفتاح الثقافي في الديار المصرية. الكلمات في هذه المنوتات، والمقالات الأدبية والفكرية والتاريخية والأخلاقية التي ترافقها في هذا العدد من المشرق، هي خير دليل على أنّ الثقافة ليست دعوة إلى الأحادية واختزال الآخر، بقدر ما هي شهادة على أنّ الواقع البشري هو واحد ومتعدّد في آن معًا، وأنّ الدعوة إلى التكتلات المغفلة، بحسب نظرية الأميركي هورتغنن، هي دعوة إلى التحجّر. وحدّها التقيّم المشتركة بين البشر التي تكوّن التراث الحضاري الروحي، هي الطريق إلى الحوار والتفاعل والتآخي ضمن ممارسة العقل والحرية المنزولة ممارسة صريحة. وحدّها الثقافة التي تتبع خطى «مصيّر» ابن رشد هي الثقافة الواعدة.